

تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ فَكْبَرُ ﴿٣﴾ وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَتَسْتَكْبِرُ ﴿٧﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٨﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَارِ ﴿٩﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَيبٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ عَذِّبَ ﴿١١﴾ ﴾

ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، كما سيأتي بيان ذلك هنالك . وروى البخاري عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلتُ له مثل ما قلتُ لي ، فقال جابر : لا أحديثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ، ونظرت أمامي فلم أر شيئا ، ونظرت خلفي فلم أر شيئا . فرفعت رأسي فرايت شيئا، فاتيت خديجة فقلت : دثروني . وصبوا على ماء باردا . قال : فدثروني وصبوا على ماء باردا قال : فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبُّكَ فَكْبَرُ ﴾ (١) . هكذا ساقه من هذا الوجه، وقد رواه مسلم عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: « فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَقُلْتُ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي . فزَمَلُونِي ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ - قال أبو سلمة : والرجز: الاوثان - ثم حَمَى الْوَحْيَ وَتَتَابَعَ . هذا لفظ البخاري (٢) . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ثم فتر الوحي عني فترة ، فبينما أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي . فزَمَلُونِي ، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبُّكَ فَكْبَرُ . وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ .

ثم حمى الوحى وتتابع . أخرجاه ^(١) .

فقله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالاول النبوة ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى : عظم . وقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، قال : لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَةٍ . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى :

فَأَنى بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تَوْبَ فَاجِرٍ لَبِستُ ، وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ اتَّقَنَعُ

وقال ابن جريج عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : فى كلام العرب : نَقَى الثياب . وقال الثورى ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخعى . وقال مجاهد : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزّين . وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لَمُدْنَس الثياب . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب . وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يعنى : لا تك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال : لا تلبس ثيابك على معصية . وقال محمد بن سيرين : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : اغسلها بالماء . وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يطهر ثيابه . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه .

وقوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ وهو الاصنام ، فاهجر . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة : إنها الاوثان . وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى : اترك المعصية . وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الاحزاب : ١] . ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِي قَوْمِى وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعِ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الاحزاب : ١٤٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم . وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ريك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير . وقال خُصَيْفٌ ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تضعف أن تستكثّر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب : تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثّهم بها ، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا . فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الاول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ، قاله مجاهد . وقال إبراهيم النخعى : اصبر على عطيتك لله تعالى .

وقوله : ﴿ فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ مُسَبِّرٍ ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : وغيرهم ﴿ النَّاقُورُ ﴾ : الصور . قال مجاهد : وهو كهيئة القرن . وروى ابن أبى حاتم : عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ ﴾ ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب

القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله تركلنا». وهكذا رواه الإمام أحمد (١).

وقوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أى : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى : غير سهل عليهم . كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [القمر : ٨] . وقد روينا عن زرارة بن أوفى - قاضى البصرة : أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله : ﴿ إِذَا نُفِخَ فِي النُّافِرِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ : شَهِقَ شهقة ، ثم خر ميتا ، رحمه الله .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿ سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا ﴾ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴾ لَا تُبْقَى وَلَا نَذَرٌ ﴿ لَوَاحَةٌ لِّلنَّارِ ﴾ عَلَيْهَا نِعْمَةُ عَاسِرٍ ﴿

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، ويدلها كفرا ، وقابلها بالجهود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر . وقد عدد الله عليه نعمة حيث قال : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أى : خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله ، ﴿ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أى : واسعا كثيرا . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل : أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَيْنَ شُهُودًا ﴾ قال مجاهد : لا يغيبون ، أى : حضورا عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل موابيهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم ، يتمتع بهم ويتملئ بهم . وكانوا - فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن قتادة - ثلاثة عشر . وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة . وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده . ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى : مكته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴾ ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله : ﴿ سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا ﴾ قال ابن عباس : صعودا : صخرة فى جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعداها . وقال مجاهد : ﴿ سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لانه فكر وقدر ، أى : تَرَوَى ماذا يقول فى القرآن حين سُئِلَ عن القرآن ، ففكر ماذا يخلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة والتروى ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى : قبض بين عينيه وقطب ، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى : كلع وكره . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرف عن الحق ، ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن ، ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكى عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٧٣) من آل عمران .

قَوْلِ الْبَشْرِ ﴿ أَى : ليس بكلام الله .

وهذا المذكور فى هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة . فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذنى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفر من قريش اتهموا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبون قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال : أأست أكثرهم مالا وولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتى؟! فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فانزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ . وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وما أشك أنه سحر . فانزل الله : ﴿ فَجَبَلْ كَيْفَ قَدَرُ ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وروى ابن جرير : عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فاتاه فقال : أَى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكراً لما قال ، وأنت كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من ذلك . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلو . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يآثره عن غيره . فنزلت : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (١) .

وقد ذكر ابن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا . وقد رعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه ، فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الاسراء: ٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشْرِ ﴾ ، قال الله عز وجل : ﴿ سَأَصْلِيهِ سَفَرٌ ﴾ أى : سأغمره فيها من جميع جهاته . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرٌ ؟ ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتضخيم . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ أى : تاكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يمتوتون ولا يحيون .

وقوله : ﴿ لَوَاحٍ لِّلْبَشْرِ ﴾ قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : ﴿ لَوَاحٍ لِّلْبَشْرِ ﴾ أى : حراقة للجلد .

وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله : ﴿ عَلَيْهَا سَعَةٌ عَشْرٌ ﴾ أى : من مُقَدِّمى الزبانية ، عَظِيم خَلْقُهُمْ ، غَلِيظ خَلْقُهُمْ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَتَفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحدى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى : خُرُانَهَا ، ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى : زبانية غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكروا عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى : شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الاسدين ^(١) - واسمه : كَلْدَةُ بن أسيد بن خلف - قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا اكفيكم منهم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلي : وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارحته وقال : إن صرعتى آمنت بك ، فصرعه النبي ﷺ مرارا ، فلم يؤمن . قال : وقد نَسَب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . قلت : ولا منافاة بين ما ذكره ، والله أعلم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منّا للناس ، ﴿ لِيَسْتَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . ﴿ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى : إلى إيمانهم . أى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ، ﴿ وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى : من المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ؟ ﴾ أى : يقولون : ما الحكمة فى ذكر هذا هاهنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لثلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن شايهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها ، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ . وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو

(١) فى المطبوعة : « أبا الاسدين » بالسین المهملة ، وهو خطأ ، والمثبت من المخطوطة والطبرى والدر المنثور عند تفسيرهما لهذه الآية .

يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم (١) .
 وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار التي وصفت،
 ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾. ثم قال: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ. وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ أي: ولي، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: اشرق ،
 ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُتُبِ﴾ أي: العظام ، يعني: النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير
 واحد من السلف: - ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقُوا أَوْ يَتَّخِذُوا﴾ أي: لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى
 للحق ، أو يتأخر عنها ويؤلى ويردها .

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ
 الْمُجْرِمِينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿وَلَمْ نَكُ نُعْطِ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾
 ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ فَمَا
 تَنفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ كَانَهُمْ حُرٌّ مُسْتَفِرَّةٌ ﴿فَرَّتْ
 مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ
 الْآخِرَةَ﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكَرُوا ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴿

يقول تعالى مخبراً أن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ أي: معتلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن
 عباس وغيره ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ، فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسألون المجرمين
 وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ
 نُعْطِ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾ أي:
 نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة: كلما غوى غاوى غويانا معه ، ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾
 يعني: الموت. كقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ يَوْمَ يَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ، وقال رسول الله ﷺ: «أما هو -
 يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه» (٢) .

قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه
 يوم القيامة شفاعة شافع ، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً ، فاما من وافى الله كافراً يوم
 القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها . ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فما
 لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ، ﴿كَانَهُمْ حُرٌّ مُسْتَفِرَّةٌ. فَرَّتْ مِنْ
 قَسْوَرَةٍ﴾ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق ، وإعراضهم عنه حُرٌّ من حمر الوحش إذا فرت عن يريد
 صيدها من أسد ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس - في رواية عنه - وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن .
 أو: رام ، وهو رواية عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور . وقال ابن عباس : الأسد ، بالعربية ، ويقال
 له بالحبيشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أوياء .

(١) جزء من حديث طويل . رواه البخاري (٧٥١٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢) . وانظر أحاديث الإسراء عند أول تفسير
 سورة الإسراء .

(٢) البخاري (١٢٤٣) .

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبي . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ أَفَلَمْ نُعَلِّمْهُمْ أَنْ يَخَفُوا﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل . بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أى: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، كقوله : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأتاب . قاله قتادة .